

معرض فلسطين قبل ١٩٤٨: ليست مجرد ذاكرة - ١٩ حزيران ٢٠١٣

أيها الحفل الكريم،

يسرني، باسم مجلس أمناء مؤسسة الدراسات الفلسطينية، أن أرحب بكم اليوم، ونحن نحيي ذكرى مرور خمسين عاماً على إنشائها في بيروت، ونفتتح بهذه المناسبة معرض صور خليل رعد. أود منذ الآن أن أقول إن الاحتفاء بذكرى تأسيس مؤسسة الدراسات وإقامة هذا المعرض مرتبطان بشكل وثيق.

أنشئت المؤسسة في سنة ١٩٦٣، بمبادرة ثلاثة من رجال الفكر المقيمين في بيروت، وهم: قسطنطين زريق، المفكر السوري والأستاذ الجامعي ومؤلف كتاب معنى النكبة في آب ١٩٤٨ (وهو أول من وصف مأساة ١٩٤٨ بهذا التعبير)؛ وليد الخالدي، المؤرخ الفلسطيني وأستاذ العلاقات الدولية؛ برهان الدجاني، المفكر الفلسطيني وأستاذ الاقتصاد. في سنة ١٩٦٣ إذن، بادر هؤلاء، مع زملاء لهم، إلى إنشاء مركز علمي عربي مستقل من أجل مواجهة التحدي الناجم عما آلت إليه القضية الفلسطينية من إقامة دولة إسرائيل على الجزء الأكبر من فلسطين، إلى تشريد أهلها، وإلى تهديد العالم العربي بأسره. وليس من قبيل الصدفة أن الفترة ذاتها شهدت إعادة بناء الشخصية الوطنية الفلسطينية، وبروز تنظيمات فلسطينية مناضلة، وإنشاء منظمة التحرير، وإطلاق العمل الفدائي. فهذه التطورات شكلت إرهاباً بعودة القضية الفلسطينية إلى موقعها المركزي في الحياة السياسية العربية، وتعبيراً عن عزم على مواجهة التحدي الداهم.

أما المواجهة التي كان المبادرون إلى إنشاء مؤسسة الدراسات يؤمنون بدورهم فيها، فلم تكن في العمل الحزبي أو السياسي المباشر، أو العمل العسكري، إنما كانت في مجال المعرفة. ففي الوقت الذي كانت إسرائيل والجهات التي تساندها تحتكر رواية الصراع العربي - الإسرائيلي في أوساط المثقفين ووسائل الإعلام والجامعات ومراكز البحث العالمية، هدف المؤسسون إلى تقديم رواية بديلة، رواية تكون أمينة وموضوعية وواقعية لتاريخ هذا الصراع منذ بدئه في القرن التاسع

عشر، وتكون بالتالي قادرة على تعميق الفهم الفلسطيني والعربي لتطور الصراع، وفي الوقت ذاته قادرة على التجاوب مع العقل والضمير العالميين. من هنا، حرص المؤسسون على أن يلتزم العمل التوثيقي والبحثي في المؤسسة على أعلى المقاييس العلمية، وعلى أن تتصف منشورات المؤسسة بالرصانة ونبذ العنصرية والتجريح الشخصي. ولأن المؤسسين كانوا على قناعة راسخة بأن القضية الفلسطينية قضية عادلة في جوهرها مهما كانت الاجتهادات السياسية، أصروا بأن تكون المؤسسة مؤسسة مستقلة، لا ترتبط بأي حكومة أو حزب أو تنظيم، ولا تتدخل في الشؤون الداخلية للدول العربية أو في خلافاتها البينية.

خلال السنوات الخمسين المنصرمة، نمت مؤسسة الدراسات وترسخ حضورها في المشهد الثقافي والفكري العربي وتفرعت نشاطاتها بفضل تمسكها بهذه المنطلقات من جهة، ومواكبتها التطورات السياسية فلسطينياً وعربياً وإقليمياً ودولياً من جهة أخرى. فافتتحت مكاتب في واشنطن وباريس ورام الله، وأصدرت المئات من الكتب والنشرات، من بينها "مجلة الدراسات الفلسطينية"، و *Journal for Palestine Studies* و *Jerusalem Quarterly* ، ونظمت عشرات الندوات والمؤتمرات. وأقامت المؤسسة مركزاً للمعلومات والتوثيق يضم أهم مكتبة متخصصة في القضية الفلسطينية في العالم العربي، أولت فيها اهتماماً خاصاً بجمع وحفظ الوثائق التاريخية المتعلقة بفلسطين.

الآن وقد مضى على إنشاء المؤسسة خمسون عاماً، ومع أن إسرائيل لم تعد محتكرة الرواية التاريخية، إلا أنها تسيطر على ما تبقى من فلسطين وتواجه فلسطين والعالم العربي بتحديات أكثر تفاقماً. لذلك فإن مؤسسة الدراسات الفلسطينية، وعلى الرغم من إنجازاتها ومساهماتها العديدة في مجال الرسالة المرسومة لها، لا تستطيع الركون إلى تهنئة الذات والاحتفال بيوبيلها الذهبي بمناسبة سعيدة. إن ما يمكن لها أن تقوم به في الذكرى الخمسين لتأسيسها هو، من جهة، أن تمضي قدماً في استكشاف أشكال عمل جديدة في الزمن الآتي، ومن جهة أخرى أن تقدم بعض ما لديها من أرصدة بأساليب تليق بالمناسبة.

وما معرض الصور الفوتوغرافية للمصور خليل رعد إلا أسلوب من أساليب عرض تلك الأرصدة. فالمعرض، كونه مستقى من أرشيف المؤسسة، يشير إلى جهدها الدؤوب في حفظ الذاكرة الفلسطينية عن طريق اقتناء ما هو أصلي وأصيل، من وثائق وخرائط وأفلام ومؤلفات ومذكرات شخصية وعائلية – وصور. ويومئ المعرض أيضاً، بتركيزه على فترة ما قبل سنة ١٩٤٨، إلى شعب يقيم على أرضه ويعمرها ويفلحها ويعمل ويجهد ويصلي ويناضل و... يجب الحياة كأبي شعب آخر.

من هنا العنوان الذي اختارته فيرا تماري، قيمة المعرض. فاستحضار مختارات من صور خليل رعد، مثله مثل العمل البحثي والتوثيقي في مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ليس مجرد إحياء للذاكرة أو حنين إلى الماضي. فالمعرض، كونه دعوة رمزية إلى تصور مستقبل فلسطيني مشرق، يؤكد رسالة المؤسسة ويمثل حافظاً للحفاظ على الذاكرة من خلال التعمق في تاريخ القضية الفلسطينية بجوانبها كافة، ولتطوير نشاطاتها البحثية بالاستعانة، بين وسائل أخرى، بما يسمح به التطور الهائل في تكنولوجيا التخزين والاسترجاع والاتصال.

أخيراً، يسعدني أن أوجه شكري لكل من ساهم في إنجاح هذا المعرض: مركز السكاكيني الذي باستضافته هذا المعرض يعبر عن اهتمام ثقافي مشترك بين المركز ومؤسسة الدراسات؛ مؤسسة رفعت النمر الاجتماعية التي استضافت المعرض في بيروت؛ صندوق الاستثمار الفلسطيني الذي دعم إقامة المعرض وسائر نشاطات اليوبييل الذهبي. وطبعاً لا أنسى طاقم المؤسسة في رام الله الذي يعمل بلا كلل ولا ملل على إنجاح هذه النشاطات مع إنه، بحدثة عهده، ليس هو إلا حفيد الرعيل الأول. أما فيما يخص توجيه التقدير لمن ساهم في مضمون المعرض نفسه، فإنني أترك المهمة لفيرا تماري.

كميل منصور